« التَّرْداد » و التَّكرْار في البيان العربي

(دراسة أسلوبية في ''خطبة حجة الوداع'' للنبي ﷺ)

د. محمد الأمين خلادي

جامعة أدرار – الجزائر–

مـــقـــدمـــة

قمين بالدراسين الساعة أن يولوا وجهتهم شطر فقه الخطاب في البيان العربي محاولين قدرالإمكان التوفيق بين القراءات الجادة الشتى وفسيفساء المناهج النقدية ابتغاء البلوغ بالمتلقي إلى أظفرالقراءات الراجحة والمقاربات الفائزة التي من شأنها الإسهام في إنجاح رسالة الفن والأدب والبيان، في الوقت نفسه الأخذ بحكمة التوازن والتوفيق بين أطياف النقود المتعددة وجهود النقدة المختلفة وصيانة البيان والإبداع معنويا وجماليا وتوصاليا .

من أجل ذلك اصطفيت البحث في بيانية العربية من خلال بسط القول في الترداد / التكرار؛ لأنه يتناغم والأطاريح الأسلوبية التي اهتمت بالإيجاز في أغلب الدراسات ،ومن البواعث على ذلك مايأتي :

– عدم الاعتناء بالتكراروالترداد كالذي لقيه جنيسه الإيجاز من الرعاية والتفضيل.

– ضرورة بحث هذه الظاهرة البيانية في خطب متنوعة وعدم حصر ساحة القراءة في ضرب بياني محدود .

– محاولة تأثيل نظرية الترداد الخطابي ،لأنها تتجاوز الطروح السابقة في الاجتزاء بنظرها القاصر الذي حفل بالتكرير والتكرار طويلا.

وعلى أسس البواعث تغييت الأهداف التالية :

– تبيان آليات التكرارفي فعالية الانسجام والتماسك النصيين .

– علاقة العنوان بالتكرار في الخطاب.

– النظم واستباقه نظرية علم اللغة النصي وأثره في الدراسات البيانية كالتكرار والوصف والتخيير والربط ووسائل التضام وأدوات التلاحم في نسيج الشبكة الخطابية / النصية .

– تبليغية التكرار الوظيفي وأثرها في التوصيل والتلقي .

سأحاول في ضوء ذلك تقديم موجز نظري ثم أردفه بالتركيز على التطبيق مكاشفا خصيصات الترداد في بيانية الخطاب النبوي وبالأخص في خطبة حجة الوداع.

مـــدخـــل

« الترداد »... بله التكرار نظام لغوي بياني مخصوص تتجلى في ظاهرة فيها من البلاغة و الغرابة ما يحمل القارئ المتأمل على طرق بابه و تناول

خصيصاته و جمالياته و غاياته و فعالياته؛ و هو ذو واجهة بلاغية ظاهرة، عنوانها الصوت المتشكل تشكلا منمازا يلمع إشعاعه بخلاف سياقات بيانية تسير معه في الخطاب، وفي الوقت عينه هو منطو على باطن دلالي جمالي إيقاعي متشعب السمات التعبيرية و المعنوية بحكم تموضعه في سياقة الخطاب و النص، تستدعيه بواعث و غايات ما.

والعربية تصطبغ بالتنوع الذي يثري فعالية التلقي والتأثير، حيث إن سموها وخلودها لا ينحصر في ضرب إبلاغي واحد فقط، كالمجاز والإيجاز والاقتصاد اللغوي والتمثيل... وإنما حقيقة رفْعتها تقبع خلف تنوعات العبارة وتمظهراتها الجمالية و المعنوية الشتى؛ فتلفي تلك العبارة الترادية المغروزة في الخطاب قارئا ينجذب إليها، و عنها يسأل بعد أن قُذِفت في ذوقه ومخياله ونظره هندسة تركيبية تخّالف عن المأثور في أضرب أخرى يتكاثر وجودها بشهرة معلومة، بها تُعرف العربية و بالعربية تُعرف هي الأخرى؛ إنها الإيجاز، فالضاد إيجازها، وأما مصدر البيان الترادي فهو مخصوص بإنباهات جمالية تؤثر في متلقي الترداد والخطاب معا؛ ولكن، ما يمنع الضاد أن تتسربل بعنوان ثان عزيز أثبتته منظومة الخُطُب العربية ونصوصها و هو "الضاد ترادها".

الترداد فيض بياني وإلماع جمالي ونبض إيقاعي أسلوبي مخصوص في مسيس الحاجة إلى أن يُرجِع فيه المذّكر البَصَرَ مرارا وترادادا، عساه يستنبط ماهيته وأثره وحاجة التعبير إليه واستئناس سياقات معينة به تفرضها المقامات الخطابية والمواقف التبليغية.

التكرار والترداد بين المعجم و المصطلح :

إن الولوج في هذا المصطلح وفي حيثياته، يتطلب منا سوق جملة من شروح المعجميين والدراسين اللغويين لمادة : رد، حتى يتسنّى لنا الإحاطة بهاته المادة وتحولاتها المستوياتية، وكيف صيغت، وممّا اشتُقّت وفيما وُظّفت وإلام قصدت .

ورد في القاموس المحيط « ردّ رداّ ومردّاً ومردوداً وردّيدي، صرفه... والترداد الترديد... والارتداد الرجوع[1] » .

وجاء في اللسان «ردّد، الردّ: صرف الشيء ورجْعُه و الردّ مصدر رددت الشيء، وردّهُ عن وجهه، يردّه ردّاً ومردّاً و ترداداً: صرفه، وهو بناء للتكثير ... قال شمّر : الردّة العطفة عليهم والرغبة فيهم، وردّدهُ ترديداً وترداداً فتردّد »[2]

وفي معجم الألفاظ والأعلام القرآنية «ردّه عن كذا صرفه وأرجعه... ورادّهُ الشيء أرجعه إليه...(**ثم رددناه أسفل سافلين**) التين، الآية»[3]5 .

وتعرفه إنعام فوال عكاوي، صاحبة المعجم المفصل في علوم البلاغة بقولها: «الترديد من الردّ، مصدر رددت الشيء: صرفته، والترديد إعادة الشيء[4]».

وقد أوردت المعاجم الاصطلاحية العلمية واللغوية واللسانية هذه المادة، كورودها في قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية:«الترديد :Répétition, Repetition[5]» وفي المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات :« ترديد : Antanaclasis [6]» ، و أما في معجم عبد النور الحديث فقد ورد لفظ

الترداد كما يلي: « ترداد : Réitération, Répétition , Répulsion réitérée ، تردد : ردّد الكلام: Serépéter »7.

ذاك عن الشرح المعجمي اللغوي للترداد، أما عن المعاني والمفاهيم والتعريفات الاصطلاحية، فقد تشابهت وتقاربت تارة واختلفت وتخالفت تارات أخرى، و لعل مردّ ذلك يكمن في إشكالات المصطلح التي تطال كل بحث أدبي أو لغوي ، إلا أنها ظاهرة طبيعية لا تخلّ بغاية هذا البحث أو ذاك..

ومن العوامل التي نحسبها سببا لهذا عاملا الزمان والمكان، فكثيرا ما يتفق عالمان حول مضمون ظاهرة أدبية ما ولكنهما يختلفان في تحديد المصطلح الخاص بها لعدم اجتماعهما في بقعة واحدة أو في حقبة واحدة. أضف إلى ذلك أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في تركيب الدالّ وحمله على المدلول.

كما أن المادة اللغوية لأي نص أدبي قد تملي على الدارس وضع مصطلح محدد بعينه ؛ دون غيره، فدارس التكرار في الجانب البلاغي مثلا قد يختلف مع دارس التكرار في جانبه اللغوي من حيث تحديد المصطلح .

ثم إن طبيعة الطرح الموسوعي التي شاعت عند علماء العربية قديما كانت تفرض على العالم بسط دقائق الظاهرة اللغوية و الاجتهاد و الاستطراد فيها ما قد يتولد عنه وضع مصطلح يختلف عن غيره.

و كما هو الحال أيضا عند الدارسين المحدثين؛ فما من بحث أو دراسة إلا و أُثيرت مشكلة المصطلح و وجد الباحث نفسه في توزّع بين الأخذ

من موروثه الأدبي، و بين تحصيله المعرفي عند الغرب و بين اجتهاده الشخصي الصرف، لأجل هذا و حتى لا يضيع معنا القارئ في حمأة هذا المعترك الاصطلاحي، ارتأينا أن ننير له طريقا نراها أجدر و أقرب إلى درْك المبتغى؛ فسنعرض جملة ممّا تهيأ لدينا من تعريفات و مفاهيم قديمة و حديثة لمفهوم الترداد معنىً لا اصطلاحاً، مفصّلين القول في بعضٍ منها، وموجزين في البعض الآخر. كما تجدر الإشارة هنا إلى أننا اعتمدنا -بقوة- في تفصيل هاته الأجناس البيانية و الفنون البلاغية المعجمَ المفصّل في علوم البلاغة للدكتورة إنعام فوّال عكّاوي ، لجمعه مختلف الآراء والتفاسير و أحسنها و أدقها .

يقول العلامة سيبويه في معرض حديثه عن عمّا لحقته الزوائد من بنات الثلاثة من غير الفعل:« وليس في الكلام مفعال ولا فعلال ولا تفعال إلا مصدرا، و ذلك نحو: الترداد و التقتال »[8]

أما الإمام السيوطي فقد بسط القول في هذا؛ عند تفصيله لصيغ المزيد من الثلاثي المضعّف ، حينما أورد صيغة تفعال، و ضرب لها مثالا بقوله: « وتفعالٌ:ترادٌّ »[9]

ويقول في كتابه الإتقان في علوم القرآن: «التكرير وهو أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة خلافاً لبعض من غلط، وله فوائد منها التقرير، وقد قيل الكلام إذا تكرّر تقرّر ، وقد نبّه تعالى على السبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص و الإنذار في القرآن بقوله : وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً، ومنها التأكيد، ومنها زيادة

التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقّي الكلام بالقبول... ومنه ما كان لتعدد المتعلّق بأن يكون المكرّر ثانياً متعلّقاً بغير ما تعلّق به الأول، وهذا القسم يسمّى بالترديد، كقوله : الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّي ، وقع فيها الترديد أربع مرّات وجعل منه قوله : فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ، فإنها وإن تكرّرت نيفاً وثلاثين مرة فكل واحدة تتعلّق بما قبلها ولذلك زادت على ثلاثين و لو كان الجميع عائداً إلى شيء واحد لما زاد على ثلاثة لأن التأكيد لا يزيد عليها ، قاله ابن عبد السلام وغيره ، و إن كان بعضها ليس بنعمة فذكرُ النقمة للتحذير نعمة، (وقد سئل) أي نعمة في قوله : كل من عليها فان، (فأجيب) بأجوبة أحسنها النقل من دار الهموم إلى دار السرور وإراحة المؤمن والبار من الفاجر وكذا قوله : ويل يومئذٍ للمكذّبين ، في سورة المرسلات، لأنه تعالى ذكر قصصاً مختلفة وأتبع كل قصة بهذا القول فكأنه قال عقب كل قصة ويل يومئذ للمكذّبين بهذه القصة ، وكذا قوله في سورة الشعراء: (إن في ذلك لآية و ما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم)، كرّرت ثماني مرات ، كل مرة عقب كل قصة فالإشارة في كل واحدة بذلك إلى قصة النبي المذكور قبلها وما اشتملت عليه من الآيات والعبر ، وقوله وما كان أكثرهم مؤمنين إلى قومه خاصة و لما كان مفهومه أن الأقل من قومه آمنوا أتى بوصفَيْ العزيز الرحيم، للإشارة إلى أن العزة على من لم يؤمن منهم والرحمة لمن آمن ، وكذا قوله في سورة القمر: (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر)،

و قال الزمخشري كرّر ليجدوا عن سماع كل نبأ منها اتّعاظاً و تنبيهاً ، و أن كلا من تلك الأنباء يستحق لاعتبار يختصّ به و أن ينتبهوا كي لا يغلبهم السرور و الغفلة !! [10]»

ويزيد التفصيل بقوله: « التكرير؛ و هو أبلغ من التأكيد .. وله فوائد: منها إذا طال الكلام وخُشيَ تناسي الأول أُعيدَ ثانيا تطريةً له وتجديداً لعهده؛ و منه : **ثم إن ربّك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك و أصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**، النحل،119، ... **إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين**، يوسف،4 ، و منها التعظيم و التهويل نحو : الحاقّة ما الحاقّة، القارعة ما القارعة . و أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين... و من أمثلة ما يُظنُّ أنه تكرار وليس منه : **قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون** ، الكافرون،2 ... و منه تكرير حرف الإضراب في قوله : **قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر** ، الأنبياء،5، ... ومن ذلك تكرير الأمثال كقوله : **وما يستوي الأعمى و البصير ولا الظلمات و لا النور و لا الظلّ و لا الحرور و ما يستوي الأحياء و لا الأموات** ، فاطر،19، 20 ... ومن ذلك تكرير القصص كقصة آدم و موسى و نوح و غيره من الأنبياء. قال بعضهم : ذكر الله موسى في كتابه في مائة و عشرين موضعا ... و قد ألّف البدر بن جماعة كتاباً أسماه المقتنص في فوائد تكرير القصص ، و ذكر في فوائده :

أن في كل موضع زيادة شيء لم يُذكر في الذي قبله ، أو إبدال كلمة

بأخرى لنكتة؛ و هذه عادة البلغاء ... و منها : أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة و أساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة »[11]

بلاغة خطبة حجة الوداع رسالة وبيانا للعالمين:

خطبة حجة الوداع للنبي مظهراً ترداديا رائداً في إبلاغية البيان العربي، إذ إنه ترداد غائي له من جمالية التفصيل والإبانة ما له، كيف لا وهو النبي الذي أوتي البيان وجوامع الكلم وأضرب الخطاب وفنونه، « فاعلم أن نسق البلاغة النبوية إنما هو في أكثر الحد الإنساني من ذلك الإعجاز، يعلو كلام الناس من جهة ويترل عن القرآن من جهتة الأخرى، فلا مطمع لأبلغ الناس فيما وراءه، ولا معجزة عليه فيما دونه[12]».

وهذه الخطبة أظهر نموذج جمع فيه النبي كل ما في رسالته من بلاغ دنيا وأخرى مخاطبا مطلق الناس مشهداً بعضهم على بعض مفصلاً في كبرى الحقائق بين الرب والعباد وفيما بين العباد أنفسهم مبشراً ومنذراً مجلاً ومقرعاً؛ فهي خطبة جامعة مانعة حية خالدة صالحة في كل حين تذكر الناس سعادتهم وهي المنجاة إذا رغبوا في العمل بمقتضاها أمراً ونهياً...

وقد اتخذت الهندسة البيانية في هذا النص الشريف بناء بديعياً مفصلياً يحفظ ماء المعاني والقضايا المبثوثة في الحرف والكلمة والعبارة، فثمة مفاصل ثمانية ممهدة باستفتاح ووصية واعظة مختتمة بالسلام؛ وهي أقسام ثلاثة تصنع الخطاب.

ومما زاد البناء بداعة والمضمون سمواً خالداً تغرز خطاب ترادي في

أواسط المفاصل, هدفه إثارة الانتباه للتركيز في التلقي ، لأن الأمور ذات جلل و كذا إيقاع وقفات فاصلة تمعلم خصوصية كل مفصل بموضوع معين, وكأنه علامة على التوقيع النبوي في ترسيخ إعلامات مخصوصة يقرؤها كل من شهد الخطبة أو تلقاها على مدار الزمان وحدود المكان.

أسلوبية الترداد في الخطبة:

يمكن إيجاز عنوانات الأقسام و المفاصل كالآتي:

القسم الأول: مفتتح بالحمدلة والاستغفار والشهادتين والتصريح برأس الخطبة من خلال توصيته عباد الله بالتقوى والطاعة ثم مفصلة ما بين القسمين بعبارة (أما بعد).

القسم الثاني: ويحتوي ثمانية مفاصل.

المفصل الأول: نداء أول (أيها الناس) مع الإشعار بالسماع لما سيلقى محسسا المتلقين بعظمة الموقف زمانا وهو موسم الحج ومكاناً هو البقعة الحرام.

والنداء(أيها الناس) هو رأس موضوع المفصل كما أنه العبارة التي تتردد في الخطبة ابتداءً بتحديث المخاطب في إطلاقية تعم بني البشر جميعاً؛ وهي ترادة ذكرت ثمان مرات إلحاحا على مقصديتها العميقة وعموم المخاطبين بها وكل ذلك موصول بالزمكانية التي أكدها النبي في المفصل الأول تبيينا يعلم الجمهور يومذاك بحسم اللقاء الذي تحسبه النبي، فقذف بخطابه إيقانا منه بذلك التحسب أي لقاء الله تعالى؛ وهذا المفصل في موضوعه كأنه مستهل يبدأ به المفصل الأول ومقدمة لكل المفاصل.

المفصل الثاني: يفتتح بترداد النداء (أيها الناس) ويختم بترداد (ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)، وهو اختتام يذيل به المفصل في مستويين أولهما بعد تحريم الدماء والأقوال والأعراض في أن يعتدى عليها باطلاً وثانيهما بعد تحريم الربا ودماء الجاهلية ومآثرها الموضوعة...

وذاك الإشهاد ورد مرتين في هذا الفصل لتعلم جسامة هذه الموضوعات الجامعة للأمر والنهي وهي مسائل كبرى فكان الترداد مقصوداً لإعلام السامع والقارئ والمتلقي إعلاماً حقيقاً بالتأمل والحذر والنظر لأنه إشهاد الله تعالى على تبليغ النبي رسالته كاملة في جوامع الأمر والنهي وموانعها.

المفصل الثالث: تبيان حقيقة الشيطان في يأسه من القعود في الصراط المستقيم للناس، لكنه يحتنكهم في الأمور التي يستصغرونها من القول والاعتقاد والعمل، وهذا كله يعد إنباه كل الناس بلازمة (أيها الناس) اقتداء بخطاب القرآن العظيم.

المفصل الرابع: يتوج بتكرار (أيها الناس) وفيه سدادية البيان التي تزيد المعاني عمقا وتجدداً وإيقاعاً يتكرر في السمع وتترك أثرها في العالمين لأنهم المقصودون جميعا وقد وقعوا تحت هذا النداء الذي يقيم عليهم الحجة إذا ما خالفوا الأحكام القرآنية التي وسمت النسيء بالكفر وبينت الأشهر الحرم كأعدل وسم للزمان ثم يذيل المفصل بترداد الإشهاد كتوقيع يقيني لا رجعة في قراره.

المفصل الخامس: يشرع الخطيب في بسط موضوع يخص موقع النساء في شريعة الإسلام. وهو تشريع رباني عدل حكيم كامل شامل متزن حق، أساسه الإنصاف المتوازن بين الرجال والنساء حيث لا شريعة تثبت قدرتها على هذا الكمال المطلق في مكانة الذكر والأنثى كما لا طاقة لقانون مهما قوي وعدل في أن يحيط بسعادة هذين المخلوقين، وهل للمخلوق حول وقوة في ذلك؟ إنه حول الخالق تعالى وقوته العالم بخلقه فيما دق وعظم، ثم يوصى النبي الناس في أن يتقوا الله في النساء، ثم يسوق الترداد بالإبلاغ والإشهاد تبرؤاً نبوياً من الكتمان وبرهاناً على تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة ونصح الأمة...

المفصل السادس: وما بين الترادين (أيها الناس) و(ألا هل بلّغت؟ اللهم فاشهد) تقرير الأخوة بين المؤمنين وتحريم أخذ مال الآخر إلا بحق، ثم استقلال الخطاب —ههنا- بموضوع القتل وهو الفتنة الكبرى التي كان يخشاها النبي ويتوقعها في مستقبل الأمة والإنسانية؛ لهذا يستدرك ضمن هذا المفصل إخطار الناس بتبعات هذه المآثم والجرائم إذ ربط ضرب الرقاب بالكفر محملا إياهم بالعود إلى الكتاب والسنة فهما الهداية عينها ويختم بترداد الإبلاغ والإشهاد.

المفصل السابع: وخصه الخطيب بالعود على البدء، وهو تذكير الناس بأول الخلق وأصل الآدمي من آدم والتراب، وهو إبلاغ مقصود لأن الأصل الكريم ومعقد التفاضل والتفاخر في مكسب التقوى وخوف الله تعالى.

وهذا إنباء في صميم الخطبة لأنه يرتبط بالمفاصل السابقة، إذ إن الناس على هدي من حياتهم في تلك المسائل الكبرى سالفة الذكر ما داموا يخشون الله تعالى، ولا معنى لحياتهم في ذلك –أيضا– إن كانوا عن التقوى زائغين.

والمفصل السابع: يبدأ بترداد (أيها الناس) ثم يختم بالترداد : (ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)، إلا أن نهاية هذا المفصل زادت في تأكيدية الترداد لما أجاب الحاضرون نبيهم بقولهم (نعم) فقال (فليبلغ الشاهد الغائب) فأشهدهم على أنفسهم ومدّد من شأن الرسالة فكانت الخطبة شهادة في ذاتها صالحة لمطلق الزمان والمكان والإنسان.

المفصل الثامن: يختم الخطيب –بعد نداء الناس (أيها الناس) –النص بما يتساوق والختم فذكر موضوع الميراث لأنه عالق بالموت والعقب وهذا ما يختم به المرء وجوده، فكان اختتاما منسجماً والخطبة في مفاصلها وأقسامها، وكأنه تذكير بأفق الآخرة وما يجب التزود به للموت وما بعدها.

ثم تختم الخطبة بالسلام وهو تحية مشحنة بوداع تنبأ به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومما يستفاد من سوق الترداد في هذه الخطبة ازديان بيانها بإبلاغية دلالية تحفظ ذاكرة الرسالة المحمدية التي اختصرها النبي في هذه الخطبة المعلمة الناس بأمور دينهم ودنياهم في اقتضاب مكثف يطوي في ثناياه تضاعيف الحياة قولاً وفعلاً أمراً ونهياً، وخصوصاً تلك التي تتعلق بالمخلوقين فيما بينهم حرصاً من النبي على سلامة عقباهم يوم لا راحم إلا الله.

ومن جهة التركيب الأسلوبي والإيقاعية فثمة تجليات بيانية تؤكد مشروعية الترداد ومبتغى الإيصال وإرضاء المتلقي إقناعاً واقتناعا، وذلك بتركيب ردده النبي جمع فيه بين الإنشاء والخبر ضمن هندسة متلونة من شأنها استحضار الجو النفسي والتهيؤ الذهني للمتلقي؛ والنداء إسماع مشهّر يحمل السامع/ المتلقي على التلبية بطريق أو بآخر، أفضله الاستجابة سمعاً وطاعة وأقبحه انتهاء النداء إليه وإن عصا وتكبر وتجاهل، ثم أسلوب الاستفتاح والاستفهام (ألا هل بلغت، اللهم فاشهد) أسلوب كأنه يؤكد النداء ويقر نفاذه إلى المتلقي وما بين الأسلوبين تتقرر الخبرية الحاملة لرسالات أراد النبي إبلاغها إلى الشاهد والغائب سواء.

ومن ثم فالتوزيع الهندسي لتركيب الترداد يصون الرسالة ويوصلها إلى مؤداها الحقيقي وبذلك فإنه حقا النبي الحريص على الناس ومجيرهم من النار...

أما إيقاعية الترداد فإنها تتبوأ مكانة سامقة في شد الوجدان وخلابة السمع، وهي إيقاعية مزدوجة تتمثل في بيئتين جلية وخفية وبينهما ائتلاف واختلاف.

فالبيئة الإيقاعية الجلية والخفية يتم الإيلاف بينهما من جهة أن كلا منهما لا يكون إلا حيث يكون الترداد.

أما ما بينهما من اختلاف فسببه أن الإيقاع الجلي مصحوب بترداد اللوازم عمودياً في النص؛ وهو إيقاع التكرار في رؤوس المفاصل وأذيالها بعبارات (أيها الناس/ ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد)؛ فكأن كل ترداد

لاحق هو رد على ترداد سابق وبه يقع النغم الخارجي الذي هو كالفاصلة الإيقاعية والتي بها تنماز معاني كل مفصل عن الآخر؛ فعمودية الإيقاع الجلي موصولة بالترتيب المتدرج لمعاني الخطبة وموضوعاتها حتى يغدو السامع / المتلقي في حال التوقع تجاه إيراد الترداد مجرد اكتمال معنى المفصل وحيثياته الدلالية وبهذا فهو ترداد وظيفي يخدم الفكر و يزين الفقرات بنغم مخصوص يؤثر في الأذن ثم في القلب.

وأما عن الإيقاع الخفي فمنشؤه تكرارات ترد أُفقيا في كل مفصل زيادة عن ترداد اللازمة، فينجرّ نغم جواني يتأخر في بروزه بعد الإيقاع الخارجي للازمة المفصلية؛ ذلك لأنه يُحيي نغماً مصاحباً له جراء ترداد أفقية تمدد نغم اللازمة مثل: (فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا)؛ وهنا تكرار ضمير المتكلم الذي يؤكد ضمير المنادي وهو النبي ثم ترداد اسم الإشارة الذي يفيد التعيين والتدقيق إشعاراً بهول الموقف وجديته, كما الأمر في المفصل الثاني فبعد اللازمة المفصلية تتواتر عبارات قصيرة ذات إيقاعات تشعّ بالروح المتخفية وراء المباني تترك أثراً غائراً في نفسية المتلقي: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا..)؛ وثمة سرد لتواتر ضمائر المخاطب تحدث استجابة لمثير اللازمة في ضميرها المتكلم (أيها الناس)، فالتكرار الضمائري ذو إيقاعية خصيبة تحدث وقعاً في السامع، ناهيك عن الميمات الساكنة التي تترجم انتهاء الإعلام في آذان المتلقين وقلوبهم، وإنّ حُرمة الدماء والأقوال والأعراض شبّهت بحُرمة يوم

عرفة وشهر ذي الحجة والبيت الحرام وفي هذا ترداد بالتشبيه يحمل إيقاعاً داخلياً بفعل المقارنة لتحقق المساواة والشبه، كما تجلت النغمية الجوانية في صناعة التركيب المكرّر في غالب عناصره: (يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)، ومنه فالإيقاع الداخلي يصنع بمؤتلف اللفظ ومختلفه... ومثال هذا شائع في نغمية الخطبة وهي تتجدد من مفصل إلى آخر بتجدد الزمن النفسي للقراءة والمعاني المتغايرة (لا تظلمون ولا تُظلمون... وإن أول ربا أبدأ به... وإن أول دم أبدأ به...).

ومما يُرسّخ بتكرار الضمائر والروابط وأسماء الإشارة الانسجام الخطابي ولهذا فالإيقاع الجلي والخفي قد تشابكا عموديا وأفقيا لهما توطيدية معنوية ونسيجية بيانية في كمال النص النبوي وثبوتيته.

ومن إيقاعية الخطبة اسمها وعنوانها (حجة الوداع)، ولهذا وردت الترادات بزخم قصدي غايته التوصيل والإشهاد لما فيها من خواتم الرسالة وزواجرها ومبشراتها ويقينياتها الحقة، وقد أُلقيت بمسحة تنبئ عن خطيب قرُب فراقه وارتحاله عن الدنيا !

ومهما يكن فإن حقيقة الاقتدار وإصابة المعنى وإتقان الكلام تصريفاً لا توزن بوجود الترداد أوالإيجاز أو هما معاً، وإنما عمدة الأمر في سوق هذين النظامين البيانيين في حال الخطاب ومقامه الزّمكاني وغاية الرسالة المقذوفة فيه «على أنه لا يؤخذ مما قدمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يطيل الكلام إن رأى وجها للإطالة، فقد كان ربما فعل ذلك إن لم يكن منه بدّ، وقد روى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم خطب بعد

العصر فقال: ''ألا إن الدنيا خضِرةٌ حلوةٌ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا...'' قال أبو سعيد: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حُمرة على أطراف السعف، فقال: ''إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى ! ''. قلنا: وهذه مدة لا تقدر في عرفنا بأقل من ساعتين، وحسبك بكلام من البلاغة النبوية يستوفيهما، بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب، حتى إنه كان يأمر بقصر الخطبة.» [13].

فبالرغم من طول الخطبة فإن الترداد بانتشاره المتفشي فيها لم يمنع تألق الإيجاز بتلك الجمل القصيرة المحكمة في شد النفس السامعة والقارئة المتلقية، حتى ليبدو من الجملة الواحدة وقد جُمعت جمعاً مكثفا أنها الخطبة ذاتها، وهكذا يتعاضد نسج الترداد بالإيجاز في تناغم معنوي يلون المواقع البيانية التي تحمل المتلقي على الراحة المتملية.

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع خطابه على أساس هو التناسب البياني بوقوع شرط الصحة والمطابقة والتلاؤم بين مضمون الخطاب وزمكانيته ومستوى المتلقي فكريا وشعوريا؛ لهذا فإنه قد يطيل الإطالة الملفتة للانتباه قياساً بحاجة المتلقي لذلك الطول كما ورد في تلك الخطبة عن الدنيا وأحوالها وأهوالها، لأنه أيقن بتلك الحاجة وفحواها ضرورة تنبيه السامعين بفوت الزمن؛ إذ شبه متبقى الدنيا في ذلك القرن بمتبقى يوم الخطبة ذاك، ففيه عظة سانحة واعتبار مستديم بهدف إقناع المتلقين في جمهور الخطبة، بل وكل المتلقين على مدار الزمان وآفاق المكان.

ولعل خطبة حجة الوداع شبيهة بهذه الخطبة من جهة الداعي إلى الطول والتفصيل، وهو ضرب من النظام البياني تمليه أزمنة مخصوصة، وليس بالساري في غالب خطبه صلى الله عليه وسلم، ولا شك في أن إدارة الكلام النبوي بينه وبين المتلقي تنسج على منوال النظام البياني في إلقاء الخطاب المعجز.

وثمة بيانات نبوية أخرى تتواتر فيها الترادات كالتعريفات والموازين والرسائل والأمثال النبوية ويجل عددها عن الحصر، وهي خُطُب حقيقة بالدراسة والبحث في جواهرها اللغوية والمعنوية واللسانية...[14].

الهوامش :

1 – محيي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، ص :304

2 – أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار بيروت للطباعة و النشر، ص: 172 ، 173

3 – محمد إسماعيل ابراهيم، معجم الألفاظ و الأعلام القرآنية، ص:199

4 – د.إنعام فوال عكاوي، المعجم المفصل في علوم البلاغة، ص: :303

5 – د.إميل يعقوب و آخرون ، قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية ،عربي إنجليزي فرنسي، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط:1 ،1987 م ، ص :118

المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحد 6 – لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي، فرنسي، عربي)، تونس، 1989، ص: 12

7 – جبور عبد النور، معجم عبد النور الحديث، عربي، فرنسي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:11، 2001، ص:12

8 – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب (كتاب سيبويه)، تحقيق و شرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط:3/ 1403 هـ،1983م ،ج:4، ص:257

9 – عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، شرح و ضبط و تصحيح: محمد أحمد جاد المولى بك ، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1408 هـ، 1987 م ، ج:2، ص :8

10 – عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت، لبنان، ج:2 ، ص :66 ، 67

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبط و تصحيح 11 – : أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1 /1408 هـ ،1988 م ، مج:1 ، ص : 258 ،259 ،262 ،263

– 12مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتب رحاب، الجزائر، ص341.

13 – الرافعي ، إعجاز القرآن ص : 302 .

14– ينظرأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، تح عماد الدين احمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط4، (د:ت)، ص 155-147، وأنظر: ابن شيق، العمدة، ج2، ص 580.